

للناس ولا يكتموه ، فاذا تمسروا أو تمذروا على بعضهم فهم الآية أو الحديث بمد يانه بقدر الاستطاعة خرج المفتي من تهمة الكتمان . واما المسائل التي لا نص فيها بينها ويتعذر على السائل فهم مأخذها ، كبعض مسائل المواثيق التي بدخلها العول مثلا ، فلا بأس ببيان الحكم فيها بدون ذكر مأخذها . واما تعويد الناس اخذ مسائل الدين بدون وصلها بأصلها من الكتاب والسنة فهو قطع لحبل الله ورسوله بين المؤمنين ، وهو الذي فتح للباطنية وغيرهم من المضامين ، باب اضلال المسلمين . اذ صارت العامة تقبل كل ما يقال لها انه من الدين . - فهنا سبب ما رأيناه وسميناه اشتراطاً ، ولولا ضيق الوقت لراجعنا ما تشيرون اليه من مظانه واجبتنا عنه بعينه ، والخطب سهل ان شاء الله تعالى .

## باب الانتقاد على المنار

قد عباد في المنار ، والمناظرات بين دعاة النصرانية وعلماء الاسلام **﴿** ارسل اليها طاهر افندي التتير من بيروت بذتين في الرد على دعاة النصرانية الذين فتح لهم الدستور باب الجرأة على توزيع رسائل الطعن في الاسلام في سورية حتى قاربوا ان يجهروا فيها كما يجهرون في مصر ، وقد رأينا في كل من التبتين عدودا في التعبير حذفاً ونقحنا وتصرفنا في العبارة محذوف بعض المعاني الشعرية التي تؤثر تأثيراً رديئاً بلا فائدة . وقد ظهر لنا بعد ذلك انه بقي في الكلام ما ينتقد على الكاتب ، وكذا على الناشر ، لانه يؤلم القارئ من النصاري ، اذ كاشفنا بعض اصدقاتنا السوريين بما انتقدوه ، وقالوا ان مثل هذا لا يعهد من المنار ، فهو يرد على المبشرين من سنين طويلة ولم ينتقد عليه كلمة واحدة تعد جارحة أو بعيدة عن الأدب ، ثم انه قد عرف بأنه داعية وفاق ومودة ، فلا ينبغي له ان ينشر ان لا يراعون مشربه هذا ما يتأف به . فرأينا ان نكتب كلمات في هذا الموضوع تزيل اللبس ، وتكون هي القول الفصل ، وهي :

(١) انا محمد الله تعالى ان جعلنا من دعاة الوفاق والمودة ، ومن محبي الأدب والزاهة ، وانه ليسوعنا وبجزنا ان تقع في سهو او غلط ينافي ذلك وبنارضه ، واذا عثرنا سارع الى التوبة والندم ، وتلافي ما يمكن تلافيه بما تحمله الطاقة ، وتناله الاستطاعة .

(٢) ان المنار لا يشترك فيه النصاري كما يشترك المسلمون في عقدهم الدينية . - دع السياسية التي تسمى عامة . - فلا يوجد في مشركه عشرة نفر من النصاري ، لأجل هذا لا نخطر في بالنا عند كتابة كل شيء او نشره ان نراعي فيه موقفه من نفوسهم ، وتأثيره فيهم وديهم ، والأدب مطلوب عندنا لذاته . وانما يطبع عليه عند قليل من اهل العلم والأدب كاحباب الصحف التي يادها المنار ، وهؤلاء من الامهرار احباب الصدور

الواسعة ، فاذا هم استنكروا شيئا لا يذيعونه في جمهور قومهم ، ونتيجة هذا أن ما ينشره المنار لا تأثير له في عامة النصارى حتى يقال ان المجلات كالجرائد يجب ان يراعى فيها شعور جميع الملل التي تقيم في الوطن التي تصدر فيه او تنطق باللغة التي تكتب بها . فهو اذا من كتب الاسلام الدينية ، فلا وجه لمطالبتنا بأن يراعى شعورهم فيه ، ولا لدعوى ان ما ينشر مخالفا لعقائدهم او ردا عليها يوجب التفرقة والعداوة .

(٣) إن دعاة النصرانية هم المعتدون على المسلمين بالظلم في دينهم بما ينشرون من الكتب والرسائل والصحف ، وبما يعتقدون من الجاهل لدعوة المسلمين الى دينهم وفي مدارسهم ومستشفياتهم ، فصار من الواجب علينا شرعا أن ندافع عن ديننا ، ونفرض عوامنا عن قبول دعوتهم . فالفرق بيننا وبينهم انهم مهاجمون ونحن مدافعون ، وانهم يكتبون مطاعنهم لينشروها في المسلمين ، كما يشنون مطاعنهم القولية فيهم ، ونحن لا ننشر مطاعنا بين النصارى ولا نشافهم بها ، ولا يكاد يطلع عليها الا عدد قليل من محبي الوقوف على الشؤون العامة . فمن ينتقد ما نكتبه بدعوى انه يوجب العداوة والتفرقة بين عامة الفريقين مخطيء ، وانما يكون مصيبا اذا قال ذلك فيما يكتبه اهل ملته ودينه ، لانهم ينشرونه بين المسلمين فينفروهم من النصارى ، ولا يغفل عن هذا او يتعاطل عنه الا الغالي في التعصب .

(٤) قال بعض اصحابنا إن الطاعنين في الاسلام من النصارى كلهم من الاجانب كالامريكان والانكليز لا من ابناء وطننا ، فلا ينبغي ان نسيء الى ابناء وطننا بردنا عليهم . وتقول ( اولاً ) أن هذا القول غير صحيح ، فكتاب ( الضلالة ) المسمى بضد اسمه تأليف رجل من متعصي القبط وهو افقر هذه الكتب وأقلها أدبا في الطعن في نبينا صلى الله عليه وسلم ، وكتاب اجاث المجتهدين مؤلفه سوري ، بل اقول ان اكثر تلك الكتب والرسائل والصحف الطاعنة في الاسلام يكتبها اجراء المبشرين من الوطنيين او يترجمونها اذ لا يكاد يوجد في أولئك الاجانب من يحسن الكتابة العربية ، وانما ينشرها الاجانب لان لديهم أموالا كثيرة مرصدة لذلك من اهل بلادهم الذين يقول لنا ابناء وطننا انهم هم البراءة من التعصب الديني دون اهل الشرق . ولأن لهم من الامتيازات والنفوذ السياسي ما يحتملهم من سلطة الحكومة . ونحن نرى جمهور الوطنيين من ذنب أولئك الاجراء ولا نعدده مانعا من الاتفاق بيننا وبينهم ( وثانياً ) اذا فرضنا ان هذا العدوان من الاجانب خاصة ، فهل من العدل ان يطالبنا نصارى بلادنا بأن لا نورد عليهم ، ولا نحذر عوامنا ونحول بينهم وبين افسادهم لعقائدهم ، لان دفاعنا عن ديننا يجرح عواظهم الدينية ؟ اليس مستهين التعصب والسعي للعداوة والتفرقة ان تطالب ابن وطنك بان يترك الدفاع عن دينه ، وتعلم اهله ما يصونهم عن الارتداد عنه ، أو عن فساد العقيدة الذي قلما تنتج دعوة المبشرين

غيره، وأن يرضى أن يكذب قرآنه ويشتم رسوله، إكراماً لخاطرك، ومراعاة لعواطفك؟  
 (٥) ان القاعدة الصحيحة المعقولة للاتفاق هي قاعدة المنار الذهبية التي دعا إليها المختلفين في المذاهب والاجناس من المسلمين، والمختلفين في الأديان والاجناس من العثمانيين . وهي « تتعاون على ما نشترك فيه . ويعذر بعضنا بعضاً فيما نختلف فيه » وقد شرحناها غير مرة ولكن كثيراً من الناس لا يحبون الوفاق ، ومنهم اعوان المبشرين من الوطنيين ، وبعض الكتاب والصحافيين ، كالشيخ يوسف الخازن من نصارى السوريين، الذي وضع قاعدة للخلاف، ضد القاعدة التي وضعها للوفاق ، وصرح بها في ملأ من أدباء نصارى السوريين كنت اكلهم في وجوب السعي الى الوفاق والوحدة . فسخر من هذه الدعوة ، وقال : اذا كان الخلاف بين مسلم ونصراني فأنا مع النصراني على المسلم كيفما كان - أي في الحق والباطل ، واذا كان بين كاثوليكي وغير كاثوليكي فأنا مع الكاثوليكي مطلقاً ، واذا كان بين كاثوليكي ماروني وكاثوليكي غير ماروني فأنا مع الماروني مطلقاً قال وكل الناس كذلك . فمثل هذا لا يذر المسلمين في كلمة يخالفون فيها النصارى ولا بقولهم ولو في كتبهم ومخفهم الخاصة بهم اننا على الحق والطاعن في ديننا على الباطل . ولذلك اقام النكير على المنار مرة لانه ذكر اسم المبشرين في سياق الكلام على ما افند بلادنا من سعي فساق الافرنج كواخير البغاء وحانات الخمر ويوت القمار . ونحن نرى المبشرين اشد افساداً في بلادنا من غيرهم لان صاحب الحانة يحمل المسلم او يساعده على مخالفة الاسلام في امر واحد وهو السكر ، والمبشر يحمله على ترك دينه كله ، وزد على ذلك ان المبشرين هم الذين يوقدون نار العداوة بين المسلمين والنصارى ويفسدون المسلمين انفسهم بتشكيكهم في الدين الذي هو اساس الفضيلة والتقوى والوحدة والاتفاق . فمثل الشيخ يوسف الخازن من متعصي نصارى السوريين ، وبعض اصحاب الجرائد من متعصي القبط ، اشد سعياً في التفريق بين المسلمين والنصارى من المبشرين الاجانب ، لانهم يحثون عن كلمة يقولها مسلم في الدفاع عن دينه فيجد دونها عن سبها والحامل عليها من الأعداء ويزفونها الى قومهم في صورة مشوهة وإضافات باطلة . وما بلغ المكروه الا من نقل (٤) ان مجالنا في الرد على النصاري ادبى من مجالهم لاننا نؤمن بنبيهم المسيح ونعظمه ونعظم حواريه ، ونعد الطعن فيه كفراً وردة عن الاسلام ( لان فرق بين احد من رسله ) وهم يطعنون بلا قيد ولا حد . فغاية ما يمكن ان يكتبه المسلم هو النقل من كتبهم الدينية او كتب احرار الاوربيين بشرط اظهار البراءة من كل مالا يليق بكرامة المسيح او غيره من انبياء الله صلوات الله وسلامه عليهم اجمعين ، والتصريح بأن نقل ما ذكر من باب ( ناقل الكفر ليس بكافر ) واننا لا احب لنفسى سلوك هذه الطريقة . وهي التي اضطر اليها بعض من كتب في المنار ، وكتابة التنبيه من

هذا الباب، واني حبا في النزاهة والادب، وكراهة للشعريات في المناظرة والجدل، عملا بقوله تعالى ( ولا تجادلوا اهل الكتاب الاباتي هي احسن ) قد تمحنتها ، فاذا كان قد بقي فيها كلمة شاذة ككلمة الثالث الزنائي في سياق قصة ولادة سليمان عليه السلام ، فانما ذلك من السهو الذي يظهر بما نبين من سببه ، وهو ان الكاتب جعل عنوان مقاله ( الثالث الزنائي المقدس ) وصدر الكلام في كل قصة من القصص الثلاث التي نقلها من التوراة بقوله ( الاقنوم الاول من الثالث الزنائي المقدس ) الخ وكان يخطئها بمثل هذه الكلمة ، ويكررها في أثناء العبارة ، فرجنا ( شطبنا ) كل هذه الكلمات لان فيها امتها نال اصطلاحات محترمة ، وغرضنا من تحذير عوام المسلمين من الاستجابة للمبشرين لا يتوقف على ذلك ، ولا هو مما يرضاه آدابنا ، وجعلنا مكان كلمة الاقنوم كلمة الجد ، وحذفنا لفظ الثالث من العناوين ومن تضاعف الكلام ، واتفق اننا لم نقرأ تلك الاوراق في وقت واحد لكثرة الشواغل وضيق وقتنا عنها ، ولذلك جعلنا في القصة الثالثة لفظ ( الشاهد ) بدل ( الجد ) وبقي في آخرها كلمة « الثالث الزنائي » على اني اذكر جيدا اني حذفته هذه العبارة التي كانت في العنوان الاول وتكررت في الكلام . فلا أدري اكان ترميجه ( شطبها ) غير ظاهر فجمعت حروفها ، ام كنت قد نسيتها لاني قرأت تلك الورقة التي هي فيها وحدها . ولهذا قلت فيها الشاهد الثالث بدل الجد الثالث . وقد ظهر بهذا الذي شرحته ان هذه الكلمة قد بقيت في المقالة كالعضو الأخرى . وان اللام فيها لام العهد الذكري . اي الثالث الذي تقدم ذكره . واني لما ذكرت لي ما صدقت حتى راجعت ورأيته بعيني . وقد امتعضت امتعاضا شديدا ظهر علي وسئلت عن سببه . فان من خلقي وغيري أن انألم مما يقع مني مخالفا لمشربي ورأيي ، ولو سهوا او نسيانا . ولا أبالي بما ينتقده الناس اذا كنت اعتقد انه حق و صواب وغير خارج عن حدود الآداب . ومثل هذا الغلط والسهو يقع كثيرا وفي هذا الجزء من المنار غلط في آية من القرآن غفلنا عنها . لاجل هذا قلت لمن نهني ولغيره : اني أحب ان أتلافى هذا الخطأ بما يرضى المتألمين ، منه وادع لاهل الانصاف من النصارى اقتراح ما يرونه ويرضونه من اعتذار او انتقاد لما كتب ، او حذف الكراسة من المنار وطبع كراسة بدلها خالية من كل كلمة جارحة . وانما اقبل في هذا قول المعتدلين البراء من التعصب كاسكندر بك عمون وسامي افندي الجريديني من فضلاء المحامين السوريين . على ان هذه الكتابة يصح ان تمد ترصية للمنصفين ودليلا على اننا لم ننشر تلك العبارة عمدا . واما المتعصبون فلا يرضيهم منا الاخر وجنا من ديننا . فلا زالوا ساخطين وقد سموا مع بعض المبشرين من قبل لاقتناع الوكالة البريطانية بالغاء المنار ومنع اصداره ظنا منهم بان الجوي يخلو لهم ولغيرهم من اعداء الاسلام فلا تجرأ احد على الرد عليهم .

(٧) ان سبب نشر هذه المقالة والمعنى الذي اردنا ان يفهمه المسلمون منها هو ان

إيماننا بالمسيح والانبياء اصبح من إيمان المبشرين، وتكررنا لهم خير من تكريرهم، فهم قد جمعوا فيما قالوه في المسيح عليه السلام بين الضدين فأطروه حتى أخذوه ربا وإلهاء، وتقلوا في نسبه لأمه وأبيه الناهوسي (لا الحقيقي) انه من نسل سليمان بن داود من سبط يهوذا وقد ثبت في العهد العتيق عندهم (لا عندنا) ان بعض أجداده في هذا النسب (الذي سردده متى ولوقا في انجيليهما) من اولاد الزنا . وثبت عن مقدسهم بولس أنه صار لعنة لأجلهم . ونحن المسلمين نقول انه عليه السلام اهل لكل كرامة وفضيلة ، وانه من روح الله وآية منه، ولكن ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله وتقول انه ظاهر من نسب طاهر، فنحن ننقل ما نقلنا عن العهدين العتيق والجديد مما لا يسعهم إنكاره، لاقامة الحججة عليهم، وإعلاما لعامة اهل ديننا باننا لسنا في حاجة الى من يدعوننا الى الايمان به عليه السلام، بل نحن أحق بأن ندعوا هؤلاء الدعاة الى تبرئته من اللعنة ومن دنس النسب، كما نبرئ سائر الانبياء عليهم السلام مما لا يليق بهم، ونحشو التراب في فم من يزعم اننا نقول كلمة فيهم نشعر بنقصهم . قال ابو بصيري رحمه الله في لاميته

وأبيك ما أعطى يهوذا خاتما لونا بمحصنة ولا منديلا

لوتوا بغير الحق السنة بما قالوه في ليا وفي راحيلا

ودعوا سليمان النبي بكافر واستهونوا افكا عليه مقولا

﴿ ٨ - صنوة الكلام وفصل الخطاب ﴾

ان المسلمين مدافعون لامعتدون، وهذا الدفاع فرض ديني عليهم، والمنار الذي يرد عليهم يوزع على المسلمين أيضا ليحذرهم من الارتداد عن دينهم أو يحول دون شكهم فيه ، والمثركون فيه من غير المسلمين يعدون على اصابع اليد ، فإيكتبون يثير سخيم الرأي العام الاسلامي ، ولذلك طفق المسلمون يؤلفون الجمعيات في مصر لمقاومتهم وما يكتبه المسلمون على كونه دفاعا لا يكاد يشعر العالم النصراني لانه يوزع على المسلمين دونهم ، الا اذا بحث عنه بعض المتعصبين من اصحاب الصحف او غيرهم . والمعلول يدوم بدوام عذبه . فنحن لا نترك الرد عليهم ما داموا يدعوننا الى دينهم قولا وكتابة ويتعرضون في خطبهم وكتيبهم وصحفهم لدينا ، فان تركوا تركنا ، واذا استمروا استمروا ، ونازيم الادب في العبارات بقدر فهمنا واجتهادنا ، فمن كان ساعيا في منع ذلك باخلاص وحب للوفاق فليبدأ باسكات المبشرين عن ذكر كتابنا وديننا واصول ديننا وفروعه ، ويبقى لهم مجال واسع في الدعوة الى دينهم بذكر محاسنه وما عندهم من الدلائل عايه ، ومن لم يرضه منا الا ان نسكت لهم عن الطعن في ديننا والتفكير عنه والتحرير انصوصه فلا زال ساخطا غاضبا حاقداً - الى ما شاء من لوازم تعصبه . ولعل سوء تأثير هؤلاء المبشرين سيضطّر الحكومة والمحتامين الى وضع حد لهذا الامر إما بقانون أو بغير قانون، ولا نظن أن الانكليز يجبروننا على السكوت ويدعونهم يبعثون كما يريدون

فصل<sup>٥</sup>

فيثبتذ يطامع منه على ( المشهد الثاني عشر )

وهو مشهد الذل والانكسار ، والخضوع والافتقار للرب جل جلاله ، فيشهد في كل ذرة من ذراته الباطنة والظاهرة ضرورة تامة وافتقارا تاما الى ربه ووليه ، ومن يده صلاحه وفلاحه ، وهده وسعادته ، وهذه الحال التي تحصل لقلبه لا تنال العبارة حقيقتها ، وانما تدرك بالحصول ، فيحصل فيه كسرة خاصة لا يشبهها شيء ، بحيث يرى نفسه كالاناء المروض تحت الارجل الذي لاشيء فيه ، ولا به ولا منه ، ولا فيه منفعة ، ولا يرغب في مثله ، وانه لا يصلح للانتفاع الا بجبر جديد من صانعه وقيومه ، فيثبتذ يستكثر في هذا المشهد ما من ربه اليه من الخير ، ويرى انه لا يستحق قليلا منه ولا كثيرا ، فأبي خير ناله من الله استكثره على نفسه ، وعلم أن قدره دونه ، وأن رحمة ربه اقتضت ذكره به وسياقته اليه ، واستقل ما من نفسه من الطاعات لر به ، وراها ولو ساوت طاعات الثقلين من أقل ما يذفي لر به عليه ، واستكثر قليل معاصيه وذنوبه ، فان الكسرة التي حصلت لقلبه أوجبت له هذا كله ، فما أقرب الجبر من هذا القلب المكسور ! وما أدنى النصر والرحمة والرزق منه ! وما أنفع هذا المشهد له وأجداه عليه ! وذرة من هذا ونفس منه أحب الى الله من طاعات أمثال الجبال من المدتين المعجيين بأعمالهم وعالومهم وأحوالهم وأحب القلوب الى الله سبحانه قلب قد تمكنت منه هذه الكسرة ، وملكته هذه الذلة ، فهو ناكس الرأس بين يدي ربه لا يرفع رأسه اليه حياء وخجلا من الله . قيل لبعض المارفين : أيسجد القلب ؟ قال : نعم يسجد سجدة لا يرفع رأسه منها الى يوم اللقاء . فهذا سجود القلب ، فقلب لا تبشره هذه الكسرة فهو غير ساجد السجود المراد منه . واذا سجد القلب لله هذه السجدة العظيمة سجدت معه جميع الجوارح ، وغنا الوجه حينئذ للحج القيوم ، وخشم الصوت والجوارح كلها ، وذل العبد وخضم واستكان ، ووضع خده على عتبة العبودية ،

(\*) تابع لما نشر في ص ١١٣ من المجلد السابع عشر

ناظرا بقلبه الى ربه ووليه نظر الذليل الى العزيز الرحيم ، فلا يرى الا متملقا لربه خاضعا له ، ذليلا مستعظما له ، يسأله عطفه ورحمته ، فهو يترضى ربه كما يترضى المحب الكامل المحبة محبوبه المالك له ، الذي لاغنى له عنه ، ولا بد له منه ، فليس له هم غير استرضائه واستعطافه ، لانه لاجل حياة له ولا فلاح الا في قر به ورضاه عنه ، ومحبتة له ، يقول : كيف أغضب من حياتي في رضاه ؟ وكيف أعدل عن معادتي وفلاحي وفوزي في قر به وحبه وذكره ؟

وصاحب هذا المشهد يشهد نفسه كرجل كان في كنف أبيه يذوقه بأطيب الطعام والمشرب واللباس ، ويربيه أحسن التربية ، ويرقيه في درجات الكمال أم ترقية ، وهو القيم بمصالحه كلها ، فبشبهه أبوه في حاجة له فخرج عليه في طريقه عدو فأمره وكتبه وشده وثاقا ، ثم ذهب به الى بلاد الأعداء فسامه سوء العذاب ، وعامله بضد ما يكون أبوه يعامله به ، فهو يتذكر تربية والده وإحسانه اليه الفينة بعد الفينة ، فيهبج من قلبه لواعج الحشرات كلما رأى حاله ، وتذكر ما كانت عليه ، وكل ما كان فيه . فبينما هو في أمر عدوه يسومه سوء العذاب ، ويريد نحره في آخر الأمر ، إذ حانت منه التفاتة الى نحو ديار أبيه ، فرأى أباه منه قريبا ، فسعى اليه ، وألقى نفسه عليه بين يديه ، يستغيث يا أبتاه يا أبتاه يا أبتاه ! أنظر الى ولدك وما هو فيه ، ودموعه تسبق على خديه قد اعتنقه والتزمه ، وعدوه في طلبه ، حتى وقف على رأسه وهو ملتزم لوالده ممسك له . فبيل تقول ان والده يسلمه مع هذه الحال الى عدوه ويخلي بينه وبينه ؟ فما الظن بمن هو أرحم بعبدته من الوالد بولده ، ومن الوالدة بولدها ؟ إذ قر اليه ، وهرب من عدوه اليه ، وألقى نفسه طريحا ببابه ، مرغ خده في ثرى أعتابه ، با كيا بين يديه يقول : يارب ! يارب ! ارحم من لا واهم له سواك ، ولا ناصر له سواك ، ولا مؤوي له سواك ، ولا مغيث له سواك ، مسكينك وفقيرك وسائلك ومؤمئلك ومرجيك ، لا ملجأ له ولا منجأ له منك الا اليك ، أنت معاذه ، وبك ملاذه

يامن ألوذ به فيما أومله      ومن أعود به بما أحاذره  
لا يجبر الناس عظما أنت كاسره      ولا يهبضون عظما أنت جابره

﴿ فصل ﴾

فاذا استبصر في هذا المشهد ، وتمكن من قلبه ، وباشره وذاق طعمه وحلاوته ، ترقى منه الى ( المشد الثالث عشر ) وهو الغاية التي شمر اليها السالكون ، واما القاصدون ، ولحظ اليها الماملون

وهو مشهد العبودية والمحبة والشوق الى لقائه والابتهاج به ، والفرح والسرور به ، فتشقرُّ به عينه ، ويسكن اليه قلبه ، وتطمئن اليه جوارحه ، ويستولي ذكره على لسان محبه وقلبه ، فتصير خطرات المحبة مكان خطرات المعصية ، وارادات التقرب اليه والى مرضاته ، مكان ارادة معاصيه ومساخطه ، وحركات اللسان والجوارح بالطاعات ، مكان حركاتها بالمعاصي ، وقد امتلأ قلبه من محبته ، وطج لسانه بذكره وانقادت الجوارح لطاعته ، فان هذه الكسرة الخاصة لها تأثير عجيب في المحبة لا يعبر عنه .

ويحكى عن بعض العارفين قال : دخلت على الله من ابواب الطاعات كلها فما دخلت من باب الا رأيت عليه الزحام فلم أتمكن من الدخول ، حتى جئت باب الذل والافتقار فاذا هو اقرب باب اليه واوسع ، ولا مزاحم فيه ولا معوق ، فما هو الا ان وضعت قدمي في عتبته فاذا هو قد اخذ بيدي وأدخلني عليه . وكان شيخ الاسلام ابن تيمية رضي الله عنه يقول : من اراد السعادة الابدية ، فليارثه عبية العبودية . وقال بعض العارفين : لا طريق اقرب الى الله من العبودية ، ولا حجاب اغلظ من الدعوى ، ولا ينفع مع الاعجاب والسكبر عمل واجتهاد ، ولا ينضم مع الذل والافتقار بطاعة ، يعني بعد فعل الفرائض .

واقصد ان هذه الذلة والكسرة الخاصة تدخله على الله ، وترمي به على طريق المحبة ، فيفتح له منها باب لا يفتح له من غير هذه الطريق ، وان كانت طرق سائر الاعمال والطاعات تفتح للعباد ابوابا من محبة ، لكن الذي يفتح منها من طريق الذل والانكسار والافتقار وزدراء النفس ، ورؤيتها بين الضعف والعجز واليأس والنقص والدم ، بحيث يشاهدها ضيقة وعجزا واهربا وذنبا وخطيئة ، نوع آخر وفتح آخر . والسالك بهذه الطريق غريب في الناس . هم في ود وهو في باد . وهي تسمى طريق الطير ، يسبق الغائم فيها على فراشه السعادة فيصبح وقد قطع الراكب ،

بيننا هو يحدثك واذا به قد سبق الطرف وفات السماء . فإله المستعان وهو خير  
 الغافرين . وهذا الذي حصل له من آثار محبة الله له وفرحه بتوبة عبده ، فانه  
 سبحانه يحب التوابين ويفرح بتوبتهم أعظم فرح واكمله ، فكالمطالع العبد منه  
 سبحانه عليه قبل الذنب وفي حال موافقته وبعده ، وبره به وحده عنه واحسانه  
 اليه . هاجت من قلبه لواعج محبته والشوق الى لقاءه ، فان القلوب مجبولة على حب  
 من احسن اليها ، واي احسان أعظم من احسان من يارزقه السيد بالمعاصي ، وهو  
 يده نعمه ويماره بالطفه ، ويسبل عليه ستره ، ويحفظه من خطائات أعدائه  
 المترقبين له ادنى عثرة ينالون منه بها بنيتهم ، ويردهم عنه ويحول بينهم وبينه ،  
 وهو في ذلك كله بعينه يراه ويطلع عليه ، فالسماة تستأذن ربها ان تمسسه والارض  
 تستأذنه ان تخسف به ، والبحر يستأذنه ان يغرقه ، كما في مسند الإمام احمد عن  
 النبي صلى الله عليه وسلم «ما من يوم الا والبحر يستأذن ربه ان يغرق ابن آدم ،  
 والملائكة تستأذنه ان تواجهه وتمسكه (١) والرب تعالى يقول: دعوا عبيدي فأنا أعلم به  
 اذ أنشأته من الارض ، ان كان عبدكم فشاأنكم به ، وان كان عبيدي فتني الى عبيدي ،  
 ومزني وجلالي ان أتاني ليلاً قبلته ، وأن أتاني نهاراً قبلته ، وان تقرب مني شبراً  
 تقربت منه ذراعاً ، وان تقرب مني ذراعاً تقربت منه باعاً ، وان مشى اليّ هرولاً  
 اليه ، وان استغفرني عفرت له ، وان استغاني أقلته ، وان تاب اليّ تبت عليه . من  
 اعظم مني جوداً وكرماً وانا الجواد الكريم ؟ عبيدي بيتوت ببارزوتي بالمظالم ،  
 وانا أكاؤهم في مضاجعهم ، وأعرسهم على فرشهم ، من اقبل اليّ تلقيته من بعيد ،  
 ومن ترك لأجلي أعطيته فوق المزيد ، ومن تصرف بحولي وقوتي أنت له الخليل ،  
 ومن اراد مرادي ردت ما يريد . أهل ذكري أهل محبتي ، وأهل شكري أهل  
 زيادتي ، وأهل طاعني أهل كراهتي ، وأهل مصيبي لا اقنطهم من رحمتي ، ان تابوا  
 اليّ فأنا حبيبتهم ، وان لم يتوبوا فأنا طيبيتهم ، أبتليهم بالمعائب ، لاظهرهم من المعائب»

(١) لعل المراد ان الانسان عرضة للهلاك في البر والبحر بمجهله وخطاياه ،

لولا عناية الله به وتسخيره هذه المخلوقات له . والكلام عن لسان الخيال ، قد يكون

أنصح من لسان المقال

## ﴿ نموذج آخر من الكتاب ﴾

في بعض منازل السير الى الله تعالى

فما تقدم هو نظر الصوفية في المهيمية، واختلاف مشاهد اصناف الناس فيها بين من يعتبر ويندم ويزداد بمدى صلاحها، ومن يرى انه مجبور ومعذور بالقدر، ومن يرى انه مؤد لحق الطبيعة وظوائف الاعضاء الخ وذلك جاء كله في مباحث التوبة. واما هذا النموذج فهو من نظره في سير السالكين الى الله تعالى أي الى معرفته العليا وما لهم من المنازل في طريقهم

## ﴿ فصل ﴾

ثم ينزل القلب منزل الاعتصام وهو نوعان: اعتصام بالله، واعتصام بحبل الله. قال الله تعالى ( واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا ) وقال ( واعتصموا بالله هو مولاكم، فتم المولى ونعم النصير ) والاعتصام افعال من العصمة وهو التمسك بما يصحك ويمسك من المحذور والمخوف، فالعصمة الحية، والاعتصام الاحياء، ومنه سميت القلاع المواضع، لمنها وحمايتها. ومدار السعادة الدنيوية والاخروية على الاعتصام بالله، والاعتصام بحبله، ولا نجاة الا لمن تمسك بهاتين العصمتين. فاما الاعتصام بحبله فانه يعصم من الضلالة، والاعتصام به يعصم من الهلكة، فان السائر الى الله كالسائر على طريق نحو مقصده، فهو محتاج الى هداية الطريق والسلامة فيها، فلا يصل الى مقصده الا بمد حصول هذين الأمرين له، فالدليل كفيل بعصمته من الضلالة، وان يهديه الى الطريق، والعدة والقوة والسلاح بها تحصل له السلامة من قطاع الطريق وآفتها، فالاعتصام بحبل الله يوجب له الهداية واتباع الدليل، والاعتصام بالله يوجب له القوة والعدة والسلاح والمادة التي يستلزم بها في طريقه، ولهذا اختلف عبارات السلف في الاعتصام بحبل الله بمد اشارتهم كلهم الى هذا المعنى، فقال ابن عباس: تمسكوا بدين الله. وقال ابن مسعود: هو الجماعة. وقال: عليكم بالجماعة فانها حبل الله الذي أمر به، وإن ما تكرهون في الجماعة والطاعة، خير مما تحبون في الفرقة. وقال مجاهد وعطاء: بهد الله. وقال قتادة والسدي وكثير

من أهل التفسير : هو القرآن . قال ابن مسعود رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم : ان هذا القرآن هو جبل الله ، وهو النور المبين ، والشفاء النافع ، وعصمة من تمسك به ، ونجاة من تبعه » وقال علي بن ابي طالب رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم في القرآن : هو جبل الله المتين ، وهو الذكر الحكيم ، وهو الصراط المستقيم ، وهو الذي لا تزيغ به الاعواء ، ولا يخالف به الأسن ، ولا يخفق عن كثرة الرد ، ولا تسبح منه المياه » وقال مقاتل : بامر الله وطاعته ، ولا تفرقوا كما تفرقت اليهود والنصارى . وفي الموداء من حديث مالك عن سهيل بن ابي صالح عن ابيه عن ابي هريرة رضي الله عنه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « ان الله يرضى لكم ثلاثا ويسخط لكم ثلاثا : يرضى لكم ان تعبدوه ولا تشركوا به شيئا ، وأن تعصموا بحبل الله جميعا ، وان تناصحوا من ولاة الله امركم . ويسخط لكم قيل وقال ، واضاعة المال ، وكثرة السؤال » رواه مسلم في الصحيح

قال صاحب المنازل : « الاعتصام بحبل الله هو المحافظة على طاعته مراقبة لا أمره » ويريد بمراقبة الامر انقيام بالطاعة لأجل ان الله أمر بها وأسبغ ، لا مجرد العادة أو لعله باعثة سوى امثال الامر ، كما قال طلق بن حبيب في التقوى : هي العين بطاعة الله على نور من الله ، ترجو ثواب الله ، وترك مضمية الله على نور من الله ، تخاف عقاب الله . وهذا هو الايمان والاحتمساب المشراية في كلام النبي صلى الله عليه وسلم كقوله « من صام رمضان ايمانا واحتسابا - ومن قام ليلة القدر ايمانا واحتسابا - غفر له » فالصيام والقيام هو الطاعة ، والايمان مراقبة الامر ( ١ ) واخلاص الباعث هو ان يكون الايمان الامر ( ٢ ) لا شيء سواه . ولا احتساب رجاء ثواب الله ، فالاعتصام بحبل الله يعني من البدعة وآفات عين والله أعلم

(١) ضبط في نسختنا الأمر بصيغة اسم الفاعل . وفي نسخة أخرى الأمر بصيغة المصدر وهي الموافقة لقول صاحب المنازل والاسم ، فاخترناها (٢) لم يوضح لهذه في نسختنا علامة المد ، وفي نسخة الأمر ، والاصواب بالاختراء . أي ان هذه هي التي يجب ان تكون اسم فاعل معرف والأولى هي المصدر .

﴿ فصل ﴾

وأما الاعتصام به فهو التوكل عليه ، والامتناع به ، والاحتماء به ، وسؤاله ان يجي العبد وينعمه ويصمه ويدفع عنه ، فان ثمرة الاعتصام به هو الدفع عن العبد ، والله يدفع عن الذين آمنوا ، فيدفع عن عبده المؤمن اذا اعتصم به كل سبب يقضي الى العطب ، ويحويه منه ، فيدفع عنه الشبهات والشهوات وكيد عدوه الظاهر والباطن ، وشر نفسه . ويدفع عنه موجب أسباب الشر بعد انعقادها ، بحسب قوة الاعتصام به وتمكنه ، فتفقد في حقه أسباب العطب فيدفع عنه موجباتها ومسبباتها ، ويدفع عنه قدره بقدره ، واراذته بإرادته ، ويمينه به منه .

فصل

وأما صاحب المنازل فقال ﴿ الاعتصام بالله الترقى عن كل موهوم ﴾ الموهوم عنده ما سوى الله تعالى . والترقى عنه الصمود من شهود نفسه وخرقه ، وعطائه ومنعه وتأثيره ، الى الله تعالى . وهذه إشارة الى الفناء ، ومراده الصمود عن شهود ما سوى الله الى الله . والكمال في ذلك الصمود عن ارادة ما سوى الله الى ارادته . والاتجاهي يفسره بالصمود عن وجود ما سواه الى وجوده ، بحيث لا يرى غيره وجودا البتة ، ويرى وجود كل موجود هو وجوده ، فلا وجود لغيره الا في الوهم الكاذب عنده .

قال ﴿ وهو على ثلاث درجات : اعتصام العامة بالخير استسلاما وإذعانا

بتصديق الوعد والوعيد ، وتعظيم الأمر والنهي ، وتأسيس المعاملة على اليقين والانصاف ﴾ يعني أن العامة اعتصموا بالخير الوارد عن الله استسلاما من غير منازعة ، بل ايمانا واستسلاما ، وانقادوا الى تعظيم الأمر والنهي والإذعان لها ، والتصديق بالوعد والوعيد ، وأسسوا معاملتهم على اليقين ، لاعلى الشك والتردد (١) وسلوك طريقة الاحتياط كما قال القائل :

زعم المنجم والعليب كلاهما لا تمش الأجساد قلت اليكما  
ان صح قولكما فليست بخاسر أو صح قولني فالخسار عليكما

(١) وفي نسخة : لاعلى شك والترديد . ولعله وتردد

هذه طريق أهل الريب والشك ، يقومون بالأمر والنهي احتياطاً ، وهذه الطريق لا تنجي من عذاب الله ولا يحصل لصاحبها السعادة ولا توصله إلى المآمن .  
وأما الانصاف الذي أسسوا معاملتهم عليه ، فهو الانصاف في معاملتهم لله ولخلقهم . فأما الانصاف في معاملة الله ، فإن يعطي العبودية حقها ، وأن لا ينازع ربه صفات السموات التي لا تليق بالمبدول لا تنبغي له ، من العظمة والكبرياء والجلوية .  
ومن انصافه له ان لا يشكر سواه على نعمه وينساه ، ولا يستعين بها على معاصيه ، ولا يحمد على رزقه غيره ، ولا يعبد سواه ، كما في الاثر الإلهي «أني والجن والانس في نبي عظيم : أخلقُ وُعبد غيري ، وأرزق ويشكر سواي» وفي أثر آخر «ابن آدم ما انصفني ، خيرني اليك نازل ، وشرك اليّ صاعد ، أتجيب اليك بالنعم ، وأنا عنك غني ، وتبخض اليّ بالمعاصي وأنت فقير اليّ ، ولا يزال الملك الكريم ، يعرج اليّ منك بعمل قبيح » وفي أثر آخر «يا ابن آدم ! ما من يوم جديد ، الا يأتيك من عندي رزق جديد ، وتأتي عنك الملائكة بعمل قبيح ، تأكل رزقي ونعصبي ، وتدعوني فاستجيب لك ، وتسألني فأعطيك ، وأنا أدعوك الى جنتي فتأبى ذلك ، وما هذا من الانصاف » وأما الانصاف في حق العبيد فإن يعاملهم بمثل ما يحب أن يعاملوه به . ولعمري الله هذا الذي ذكر أنه اعتصام العامة هو اعتصام خاصة الخاصة (١) في الحقيقة ، ولكن الشيخ ممن رفع له علم القناء فشر إليه ، فلا تأخذه فيه لومة لائم ، ولا يرى مقاما أجل منه .

### ﴿ فصل ﴾

قال ( واعتصام الخاصة بالانقطاع ، وهو صون الارادة قبضاً ، واسبال الخلق عن الخلق بسطاً ، ورفض الملائق عزماً ، وهو التمسك بالمرودة الوثقى ) يريد انقطاع النفس عن اغراضها من هذه الوجوه الثلاثة ، فيصون إرادته ويقبضها عما سوى الله سبحانه ، وهذا شبيه بحال أبي يزيد فيما أخبر به عن نفسه لما قيل له : ما تريد؟ فقال : أريد أن لا أريد

(الثاني) إسبال الخُلُق على الخلق بسطا . وهذا حقيقة التصوف فإنه كما قال أبو بكر الكتاني : التصوف خُلُق فمن زاد عليك في الخلق زاد عليك في التصوف . فإن حسن الخُلُق وتزكية النفس بمكارم الأخلاق ، يدل على سعة قلب صاحبه ، وكرم نفسه وسعته . وفي هذا الوصف يكف الأذى ويحمل الأذى ، ويوجد الراحة ، ويدير خدع الأيسر لمن لطم الأيمن ، ويعطي رداءه لمن سلبه قميصه ، ويمشي مياحين مع من سخره ميلا (١) وهذا علامة انقطاعه عن حظوظ نفسه وانغراسها .

وأما رفض الملائق عزما ، فهو العزم التام على رفض العلائق وتركها في ظاهره وباطنه ، والأصل هو قطع علائق الباطن ، فمتى قطعها لم تضره علائق الظاهر ، فمتى كان المال في يدك وليس في قلبك لم يضرك ولو كثر ، ومتى كان في قلبك ضررك ولو لم يكن في يدك منه شيء . قيل للإمام أحمد : أياكون الرجل زاهدا ومعه ألف دينار ؟ قال : نعم على شريطة ألا يفرح إذا زادت ولا يحزن إذا نقصت . ولهذا كان الصحابة أزهد الأمة مع ما بأيديهم من الأموال ، وقيل لسفيان الثوري : أياكون ذو المال زاهدا ؟ قال : نعم إن كان إذا زيد في ماله شكر ، وإن نقص شكر وصبر . وإنما يحدد قطع العلائق الظاهرة في موضعين : حيث يخاف منها ضررا في دينه ، أو حيث لا يكون فيها مصالحة واجبة ، والكمال من ذلك قطع العلائق التي تصير

(١) قوله : وفي هذا الوصف الخ يريد به تزكية النفس ، وهو غير حسن الخلق فإن التزكية تهذيب فهي مبدأ ، وحسن الخلق غاية . وفي طور التزكية والتهذيب يحسن ما ذكره من العمل بوصايا الأنجيل ، كقوله : من لطمك على خدك الأيمن فأدره الأيسر . الخ ودين المسيح كله تهذيب للدين محمد عليهما السلام ، بل هما دين واحد جاء التقسم الأول منه تهديدا للثاني ، كما أخبر المسيح أصحابه بأنه لا يستطيع أن يقول لهم كل شيء ، ويشترطهم بأنه سيأتي بعده البارقليط الذي يقول كل شيء من حقائق الدين . وهو محمد (ص) بدليل أنه لم يجيء بعده في غيره ، وأنه هو الذي بين كل شيء . وفصل بين السائرين إلى الله تعالى بالتزكية والتهذيب وبين الواصلين إليه ، وبين فضيلتي العدل والاحسان وغير ذلك

كلايب على الصراط تمنه من العبور ، وهي كلاب الشهوات والشبهات ، ولا يضره ما تعلق به بعدها .

### ﴿ فصل ﴾

قال ( واعتصام خاصة الخاصة بالانصال ، وهو شهود الحق تفريدا ، بعد الاستحذاء له تعظيما ، والاشتغال به قربا ) لما كان ذلك الاقطاع ، موصلا الى هنا الاتصال ، كان ذلك للمتوسطين ، وهذا عنده لأهل الوصول . ويعني بشهود الحق تفريدا ، أن يشهد الحق سبحانه وحده منفردا ولا شيء معه ، وذلك لفناء الشاهد في الشهود ، والحوالة في ذلك عند القوم على الكشف . وقد تقدم ان هذا ليس بكمال ، وان الكمال ان يفني بمراده عن مراد نفسه . واما فناؤه بشهوده عن شهود ماسواه ، فدون هذا الفناء في الرتبة كما تقدم .

وأما قواه بعد الاستحذاء له تعظيما . فالشيخ قدس الله روحه لكثرة لهجه بالاستعارات عبر عن معنى لطيف عظيم بلفظة الاستحذاء التي هي استفمال من المحاذاة ، وهي المقابلة التي لا يبقى فيها جزء من المحاذي خارجا عما حاذاه . بل قد واجهه وقابله بكيته وجميع اجزائه . ( ١ ) ومراده بذلك القرب وارتفاع الوسائط المانعة منه ، ولا ريب ان العبد يقرب من ربه ، والرب يقرب من عبده ، فاما قرب العبد فكقوله تعالى ( واسجد واقرب ) وقوله في الأثر الأسي « من تقرب مني شبرا تقربت منه ذراعا » وكقوله « وما تقرب اليّ عبدي بمثل أداء ما افترضت عليه ، ولا يزال عبدي يتقرب اليّ بالنوافل حتى احبه ، فاذا أحبته كنت سمعه الذي يسمع به ، وبصره الذي يبصر به ، ويده التي يبطش بها ، ورجله التي يمشي بها ، فبي يسمع وبني يبصر وبني يبطش وبني يمشي » وفي الحديث الصحيح « أقرب

( ١ ) هذا التفسير للاستحذاء لم نجده في معاجم اللغة كلسان العرب والقاموس ونسجه بل المعروف فيها ان معنى استحذى فلان فلانا ، طلب منه أن يلبسه حذاء . كاستعلمه وأستكسماه . واظن أن الاستحذاء في كلام الهروي بالخاء المعجمة وهو الخضوع والانكسار لله تعالى . وانما تكلف المصنف له هذا التفسير لأنه وجد نسخ المنازل تذكره الاستحذاء بالمهملة

ما يكون الرب من عبده في جوف الليل الأخير « وفي الحديث أيضا « أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد » وفي الحديث الصحيح لما ارتفعت أصواتهم بالتكبير مع النبي صلى الله عليه وسلم في السفر فقال « يا أيها الناس أربعوا على أنفسكم ، انكم لا تدعون أصم ولا غائبا ، ان الذي تدعون سميع قريب ، أقرب الى أحدكم من عنق راحلته » فعبر الشيخ عن طلب القرب منه ورفض الوسائط الحائلة بينه وبين القرب المطلوب الذي لا شرعيون عابديه وأوليائه الا به ، بالاستحذاء . وحقيقته موافقة العبد الى حضرته وقدامه وبين يديه ، عكس حال من نبذه وراء ظهره ، واعرض عنه ونأى بجانبه ، بمنزلة من ولي المطاع ظهره ، وهال بشقته عنه .

وهذا الأمر لا يدرك معناه الا بوجوده وثوقه ، وأحسن ما يعبر عنه بالعبارة النبوية المحمدية « وأقرب عبارات القوم انه التقريب برفع الوسائط التي يارتفاعها يحصل للعبد حقيقة التعظيم . فلذلك قال : الاستحذاء له تعظيما . ومن اراد فهم هذا كما ينبغي فعليه بفهم اسمه تعالى الباطن وفهم اسمه القريب ، مع امتلاء القلب بحبه ، وطبع اللسان بذكره . ومن هاهنا يؤخذ العبد الى الفناء الذي كان مشمرا اليه ، عاملا عليه ،

فان كان مشمرا الى الفناء المتوسط وهو الفناء عن شهود السوى ، لم يبق في قلبه شهود لغيره البتة ، بل تصححل الرسوم وتفتى الاشارات ، ويفنى من لم يكن ويقتى من لم يزل . وفي هذا المقام يجيب داعي الفناء طوعا وورغبة لا كرها ، لأن هذا المقام امتزج فيه الحب بالتعظيم مع القرب ، وهو منتهى سفر الطالبين لمقام الفناء وان كان هذا مشمرا للفناء العالي ، وهو الفناء ، عن ارادة السوى ، لم يبق في قلبه مراد بزاحم مراده الديني الشرعي النبوي اقرآني ، بل يتحد المرادان فيصير عين مراد الرب هو مراد العبد . وهذا حقيقة المحبة الخالصة ، وفيها يكون الاتحاد الصحيح . وهو الاتحاد في المراد لا في المريد ولا في الارادة . فتدبر هذا الفرقان في هذا الموضع الذي طالما زلت فيه اقدام السالكين ، وضأت فيه افهام الواصلين . وفي هذا الباب (١) حقيقة يفنى من لم يكن ارادة وإيثارا ومحبة وتنظيما وخوفا

ورجاء وتوكلا ، ويتقى من لم يزل . وفيه ترتفع الوسائط بين الرب والعبد حقيقة ، وبمحصل (١) له الاستحذاء المذكور مقرونا بنهاية الحب وغاية التعظيم . وفي هذا للمقام بحبيب داعي الفناء في المحبة طوعا واختيارا لا كرها ، بل ينجذب اليه انجذاب قلب المحب وروحه الذي قد ملأت المحبة قلبه ، بحيث لم يبق فيه جزء فارغ منها ، الى محبوبه الذي هو اكمل محبوب واجله واحقه بالحب . وهذا الفناء اوجبه الحب الكامل المتميز بالتعظيم والجلال والقرب ، ونحو ما سوى مراد المحبوب من القاب ، بحيث لم يبق في القلب الا المحبوب ومراده . وهذا حقيقة الاعتصام به وبجبه والله المستعان .

واما قوله : والاشتغال به قريبا . أي يشغله قرب الحق عن كل ما سواه ، وهذا حقيقة القرب . ألا ترى ان القريب من الساطن جدا المقبل عليه المكلم له لا يشتغل بشيء سواه البتة ؟ فعلى قدر القرب من الله يكون اشتغال العبد به . والله اعلم .

### ﴿ فصل ﴾

ومن منازل اياك نهد واياك نستعين ( منزلة الفرار ) قال الله تعالى ( ففرؤا الى الله ) وحقيقة الفرار الهرب من شيء الى شيء ، وهو نوعان : فرار السعداء وفرار الاشقياء . فرار السعداء الفرار الى الله عز وجل ، وفرار الاشقياء الفرار منه لا اليه . واما الفرار منه اليه ففرار اوليائه . قال ابن عباس في قوله تعالى ففرؤا الى الله ففرؤا منه اليه ، واعملوا بطاعته . وقال سهل بن عبد الله : فرؤا بما سوى الله الى الله . وقال آخرون : اهربوا من عذاب (٢) الله الى ثوابه بالابان والطاعة .

وقال صاحب المنازل ( هو الهرب بما لم يكن الى من لم يزل ، وهو على ثلاث

درجات : فرار العامة من الجهل الى العلم عقدا وسعيا ، ومن الكسل الى التشمير جدا وعزما ، ومن الضيق الى السعة ثقة ورجاء ) يريد بما لم يكن « الخلق » وبما لم يزل « الحق » وقوله : فرار العامة من الجهل الى العلم عقدا وسعيا - الجهل نوعان : عدم العلم بالحق النافع ، وعدم العمل بموجبه ومنتضاه ، فكلاهما جهل افة وعرفا وشرعا

وحقيقة . قال موسى ( أعوذ بالله ان اكون من الجاهلين ) لما قال له قومه ( أتخذنا هزوا ) أي المستهزئين ( ١ ) وقال يوسف الصديق ( وإلا تصرف عني كيدهن أصب إليهن وأكن من الجاهلين ) أي من مرتكبي ما حرمت عليهم . وقال تعالى ( إنما التوبة على الله للذين يهملون سوء بجهالة ) قال قتادة : أجمع أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ان كل ما عصى الله به فهو جهالة . وقال غيره : أجمع الصحابة ان كل من عصى الله فهو جاهل . وقال الشاعر

ألا لا يجهران احد علينا فنجعل فوق جهل الجاهلينا

وسمي عدم مراعاة العلم جهلا ، اما لانه لم ينتفع به فنزل منزلة الجهل ، واما لجهله بسوء ما ينبغي عواقب فعله . فالفرار المذكور هو الفرار من الجهلين - من الجهل بالعلم الى تحصيله اعتقادا ومعرفة وبصيرة ، ومن جهل العمل الى السعي النافع والعمل الصالح قصدا وسعيا .

قوله « ومن الكسل الى التشمير جدا وعزما » أي يفر من اجابة داعي الكسل الى داعي العمل والتشمير ، بالجد والاجتهاد . والجد هو هاهنا صدق العمل واخلاصه من : وائب الفتور ووعود التسوية والنهاون ، وهو تحت السين وسوف وعسى ولعل . فهي اضرسية على البدل . وهي شجرة ثمرها الخسران والندامات . والفرق بين الجد والعزم ان العزم صدق الارادة واستجماعها ، والجد صدق العمل وبذل الجهد فيه . وقد أمر الله سبحانه وتعالى بتلقي أوامره بالعزم والجد فقال ( خذوا ما آتيناكم بقوة ) وقال ( وكتبنا له في الألواح من كل شيء موعظة وتذكيرا لكل شيء فخذها بقوة ) وقال ( يا يحيى خذ الكتاب بقوة ) أي بجد واجتهاد وعزم ، لا كمن يأخذ ما أمر به بتردد وفتور .

وقوله « ومن الضيق الى السمة ثقة ورجاء » يريد هروب العبد من ضيق صدره بالهموم والنوم والاحزان والخاوف التي تهترية في هذه الدار من جهة نفسه ، وما هو خارج عن نفسه مما يتعلق باسباب مصالحة ومصالح من يتعلق به ، وما يتعلق بماله وبدنه وأهله وعرضه ، - يهرب من ضيق صدره بذلك كله الى سمة نضاء الثقة

بأنه تبارك وتعالى ، وصدق التوكل عليه وحسن الرجاء لجبل صنعه به ، وتوقع المرجو من لطفه وبره . ومن أحسن كلام العامة قولهم : لا هم مع الله . قال الله تعالى (ومن يتق الله يجعل له مخرجا من كل مضيق ويؤتيه من كل ما سأل . وقال أبو العباس : مخرجا من كل شدة . وهذا جاما لشدائد الدنيا والآخرة ومضايق الدنيا والآخرة . فان الله يجعل للمتقي من كل مضيق على الناس واشتد عليهم في الدنيا والآخرة مخرجا . وقال الحسن : مخرجا مما ناه عنه ، (ومن يتوكل على الله فهو حسبه) أي كافي من يتق به في نوائبه ومهمات . يكفيه كل ما أهمه . والحسب الكافي « حسبنا الله » كافينا الله . وكما كان العبد حسن الظن بالله حسن الرجاء له صادق التوكل عليه ، فن الله لا يخيب أهله . فيه أمانة . فانه سبحانه لا يخيب أهل أمل ، ولا يضيع عمل عامل . وعبر عن الثقة وحسن الظن بالسمعة ، فانه لا أشرح للصدر ولا أوسع له بعد الايمان من ثقته بالله ورجائه له وحسن ظنه به

### ﴿ فصل ﴾

قال (و فرار الخاصة من الخبر الى الشهود ، ومن الرسوم الى الاصول ، ومن الحفظ الى التبريد) يعني انهم لا يرضون ان يكون ايمانهم عن مجرد خبر حتى يترقوا منه الى مشاهدة الخبر عنه ، فيطلبون الترقى من علم اليقين بالخبر الى عين اليقين بالشهود ، كما طلب ابراهيم الخليل صلوات الله وسلامه عليه ذلك من ربه إذ قال (رب أرني كيف يحيى الموتى) ، قال : أولم تؤمن ؟ قال بلى ، ولكن ليطمئن قلبي) فطلب ابراهيم ان يكون اليقين عيانا ، والمعالم مشاهدا . وهذا هو المعنى الذي عبر عنه النبي صلى الله عليه وسلم بالشك في قوله « نحن احق بالشك من ابراهيم » حيث قال « رب أرني كيف يحيى الموتى » وهو صلى الله عليه وسلم لم يشك ولا ابراهيم حاشاها من ذلك . وإنما عبر عن هذا المعنى بهذه العبارة . هذا احد الأقوال في الحديث . وفيه قول ثان انه على وجه النفي ، أي لم يشك ابراهيم حيث قال ما قال ، ولم تشك نحن . وهذا القول صحيح أيضا . أي لو كان ما طلبه للشك لسكننا نحن احق به

منه ، لكن لا يطلب ما طلب شككا ، وانما طلبه طمأنينة .

فالمراتب ثلاث : علم يقين يحصل عن الخبر ، ثم تجلي (١) حقيقة الخبر عنه للقلب أو البصر حتى يصير العلم به عين يقين ، ثم يباشره ويلاسه فيصير حق يقين ، فعلنا بالجنة والنار الآن علم يقين ، فاذا أزلت الجنة المتيقن في الموقف ، وبُرتت الجحيم للفاوِين ، وشاهدوها عيانا ، كان ذلك عين يقين ، كما قال تعالى ( لترون الجحيم \* ثم اترونها عين اليقين ) فاذا دخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار فذلك حق اليقين . وسنزيد ذلك ايضا ان شاء الله تعالى اذا انتهينا اليه .

واما قوله « ومن الرسوم الى الاصول » يريد بالرسوم ظواهر العلم والعمل ، وبالاصول حقائق الايمان ومعاملات القلوب واذواق الايمان ووارداته ، فيفر من إحكام العلم والعمل الى خشوع السر للعرفان ، فان أرباب العزائم في السير لا يقنعون برسوم الاعمال وظواهرها ، ولا يستدون الا بأرواحها وحقائقها ، وما يثبته لهم التعرف الإلهي وهو نصيبهم من الامر . والتعرف الإلهي لا يقتضي مفارقة الامر كما يظن قطاع الطريق وزنادقة الصوفية ، بل يستخرج منهم حقائق الامر واسرار العبودية وروح المعاملة ، فحظهم من الامر حظ العالم بمراد المتكلم من كلامه تصريحا وإيماء وتبنيها وإشارة ، وحظ غيرهم منه حظ التالي لمحافظة بلا فهم ولا معرفة لمراده ، وهؤلاء احوج شيء الى الأمر لانهم لم يصلوا الى تلك التعرفات والحقائق الالهية ، فالمحافظة عليه لهم علما ومعرفة وعملا وحالا ضرورية لا عوض لهم عنه البتة .

وهذا القدر هو الذي فات الزنادقة وقطاع الطريق من المنتسبين الى طريقة القوم ، فانهم لما علموا أن حقائق هذه الاوامر هي المطلوبة ارواحيا ، لا صورها واشباحها ورسومها ، قالوا : نجمع همما على مقاصدها وحقائقها ، ولا حاجة لنا الى رسومها وظواهرها ، بل الاشتغال برسومها اشتغال عن الغاية بالوسيلة ، وعن المطلوب لذاته بالمطلوب لغيره . وغرهم ما رأوا فيه الواقفين مع رسوم الاعمال وظواهرها دون مراعاة حقائقها ومقاصدها وارواحها ، فرأوا نفوسهم أشرف من نفوس أولئك وهمهم اعلى ، وانهم المشتغلون باللب وأولئك بالقتل ، فتركب من تعصير هؤلاء

(١) لعلها تجلي بتائين ، وفي نسخة أخرى « تجلي » بناء ونون

## ٢٠٨ عبادة القلب والجوارح. الفرار من الحظوظ الى التجريد (المنارج ٣٣ م ١٧)

وعدوان هؤلاء تعطيل جملة الامر - هؤلاء عطلوا سره ومقصوده وحقيقته ، وهؤلاء عطلوا رسمه وصورته ، فظنوا انهم يصلون الى حقيقة ، من غير رسمه وظاهره ، فلم يصلوا الا الى الكفر والزندقة ، وجحدوا ما علم بالضرورة بحجج الرسل ( ١ ) به . فهؤلاء كفار زنادقة منافقون ، وأولئك مقصرون غير كاملين . والقائمون بهذا وهذا هم الذين يرون أن الامر متوجه الى قلوبهم قبل جوارحهم ، وان على القلب عبودية في الامر كما على الجوارح ، وان تعطيل عبودية القلب بمنزلة تعطيل عبودية الجوارح وان كمال العبودية قيام كل من الملك وجنوده (٢) بعبوديته ، فهؤلاء خواص اهل الايمان ، واهل العلم والعرفان .

### ﴿ فصل ﴾

قوله « ومن الحظوظ الى التجريد » يريد الفرار من حظوظ النفوس على اختلاف مراتبها ، فانه لا يعرفها الا المتهنون بمعرفة الله ومراده وحقه على عبده ، ومعرفة نفوسهم وأعمالهم وآفاتهما . ورب مطالب عالية لغوم من العباد هي حظوظ تقوم آخريين يستغفرون الله منها ويفرون اليه منها ، يرونها حائلة بينهم وبين مطلوبهم . وبالجملة فالحظ ماسوي مراد الله الديني منك كأننا ما كان ، وهو ما يبرح حظ محرم الى مكروه الى مباح الى مستحب غيره احب الى الله منه ، ولا يتهيز هذا الا في مقام الرسوخ في العلم بالله وامره ، وبالنفس وصفاتها واحولها . فهناك يتبين له الحظوظ من الحفوق ، ويفر من الحظ الى التجريد . واكثر الناس لا يصالح لهم هذا لانهم انما يعبدون الله على الحظوظ وعلى مرادهم منه ، واما يجريد عبادته على مراده من عبده .

فذلك منزلة لم يعطا احد  
سوى نبي وصديق من البشر  
والزهدي زهدك فيها ليس زهدك في  
ما قد أيسح لنا في محكم السور  
والصدق صدقك في تجريدك كذا (م) الا خلاص تخليصها ان كنت ذا بصير  
كذا توكل ارباب البصائر في  
تجريد أعمالهم من ذلك الكدر  
كذلك توبتهم منها فهم ابداء  
في توبة او يصبروا داخل الحفر

(١) وفي نسخة الرسول (٢) يريد بالملك القلب ومجنوده الاعضاء

وبالجملة فصاحب هذا التجريد لا يتنسم من الله بأمر يسكن إليه دون الله ، ولا يفرح بما حصل له دون الله ، ولا يأسى على ما فاتته سوى الله ، ولا يستغني برتبة شريفة وان عظماء عنده او عند الناس ، فلا يستغني الا بالله ، ولا يفتقر الا الى الله ، ولا يفرح الا بموافقة لرضة الله ، ولا يحزن الا على ما فاتته من الله ، ولا يخاف الا من ستوطه من عين الله ، واحتجاب الله عنه ، فكمله بالله ، وكمله لله ، وكمله مع الله ، وسببه دائما الى الله ، قد رقم له علم فشر إليه ، وتجرد له مطالبه بأمل عليه ، تناديه بالخطوط : التي ! وهو يقول : انما أريد من اذا حصل لي حصل لي كل شيء ، واذا انتهى فآتي كل شيء ، فهو مع الله مجرد عن خلقه ، ومع خلقه مجرد عن نفسه ، ومع الامر مجرد عن خلقه - اعني الحظ المزامم للامر ، واما الحظ المميز على الامر ، فانه لا يحظه تناوله عن مرتبته ، ولا يسقطه من عين ربه .

وهذا ايضا موضع غلط فيه من غلط من الشيوخ فظنوا ان ارادة الحظ تقصر في الارادة ، والتحقق فيه ان الحظ نزعان : حظ يزاحم الامر ، وحظ يوزر الامر فينزهه . الاول هو المذموم والثاني محمود . وتناوله من تمام العبودية . فهذا اوز وهذا اوز .  
( النموذج بنية )

( المنارج ) : أرايتم ايها البشرى الذين تدعوننا الى النصرانية هذه المعارف البالية في الايمان ، والملم بالله وتزايا الانسان ، وهذه التفضيحات والكسالم في الاسلام ؟ - هذا النموذج نقطة من بحر كلام عاماتنا في منازل السالكين المعارفين . أرايتم من ارتقى في الدين الى الذروة العليا يمكن افقاعه بأن النزول عنها الى الدرجات التي هي دونها ، خير له من البقاء على ارتقائه وكمله فيها ؟ ارضى من هذا خلقه من الدين والايان ان يشغل خياله ولسانه باسم يسوع ، وصورة يسوع ، وتثيت يسوع ، وفداء يسوع ، الذي لا يعقل ؟ اما والله لو كان يسوع وتلاميذ يسوع وبوحننا الذي عمد يسوع ومسح رأسه ودعا له بالبركة ، ومعهم موسى واسرائيل وكل انبياء ابائنا احياء وجاءهم محمد ( عليهم الصلاة والسلام ) بهذا القرآن ما وسعهم الاتباته ، وقد كانوا كلهم على الحق والتوحيد الذي نسختموه بتثيت وفداء فاربعوا على ظلمكم ، وادعوا الى دينكم البراهمة واليهوديين وانا لهم الذين كاث لهم ثلوث كاثولوثكم ، فأوائلك لا بعد ان ينتقلوا من ثلوث الى ثلوث . واما صاحب التوحيد الذي هو اكل واعي معارف البشر ، فلا يترك التوحيد الى ما هو دونه .